2000041 -00064

السفير
الثقافي
AS.SAFIR
Friday
April 14, 2000
Issue Nº 8577

٣ نيسان ٧٥: كي لا ننسى ـ ٣ نيسان ٢٠٠٠: حتى لا تتكرر

يوم من حياتي في الحرب

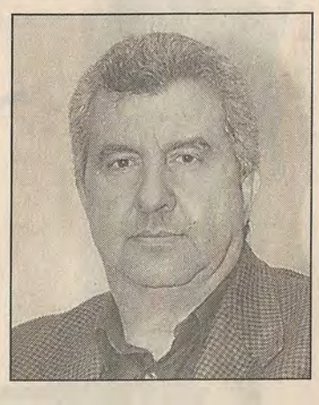

حسن جوني: مرّ الموت في محترفي

يوم من آذار ١٩٧٦.
كان نهارا باهتا، تتخلله إيقاعات موت متباعدة. قصدت محترفي بعد جولة عنف..؟ كان اسمها هكذا.
مرّ القتل من هنا... وخرج من المحترف حاملا لوحاتي وكتبي وأشيائي التي حملتها تذكارا لمدريد. لم يترك وراءه غير رعب كثيف وكتابين ورسم لوجه «كارمن» على الأرض.. وهزائم وسقوط تاريخ ودخان حنين مبعثرة فوق أنابيب الألوان.
انفصلت عني حواسي، تنكر لي عمري، وانحنيت على وجعي في وحشية المحترف السليب وحاولت استعادة ذاتي، ولو لم يصعقني فجأة دوي صاعق يقترب، لكنت ما أزال في المحترف أبحث عن رجل يحاول إنقاذ وطنه ولوحاته وكتبه وأشيائه التي حملها من مدريد... كي لا يموت مرتين.

زياد الرحباني: مطعم الانصهار

زياد الرحباني ليس بحاجة لأن يكتب جديدا، برنامجه اليومي «قول الله بعدنا طيبين» الذي أذاعته صوت الشعب، كان أيضاً بمثابة يومياته في الحرب، من البرنامج هذه الحلقة مع بعض الاجتزاء:
ـ استاذ بهيج بصفتك مدير المطعم ولو أخذت من وقتك شوي، إنما المستمعين بيحبوا ياخدوا فكرة شوي عن المطعم، وكيف نشأت هالفكرة لديكم لحتى قمتوا
لي صومالية، عمالي بيعطوا بهالصحن؟
ـ بسيطة خيي، طوّل بالك، هودي شوية عناصر غير منضبطة ع كل حال، استاذ بهيج، بدي اسألك إذا عم تقدروا تأمنوا البضاعة يوميا للمطعم.
ـ من هالناحية ما في مشكلة، الخدمة سريعة ومنقدر نأمن هاللي بدنا اياه، تحت الطلب الفوري، مثلا هيداك النهار، إجانا زبون ضهر طلب «درزي» مسحب عالفحم. فتحنا البراد ما كان باقي ولا درزي. عملت أتصالاتي فورا، وصّيت، انعمل حاجز طيار ما في ربع ساعة كان «الدرزي» بالمطعم ولبيانالو طلبو للزبون.
ـ عظيم عظيم جدا... فعلا شي بيرفع الراس.
ـ اي نعم، وبحب قلك إنو... بحب زيد شي يعني إنو نحنا ما عنا طائفية ونحنا ضد الطائفية، ونحنا مع العدالة الاجتماعية ومع تكافؤ الفرص.
ـ طيب استاذ بهيج أنا بشكرك ع هالشرح الوافي والله يعطيك ألف عافية، ومنحب هلق ننقل للمستمعين صورة صوتية عن جو المطعم.
ـ يا معلم.
ـ امور.
ـ شو عاملين اليوم؟
ـ والله في عنا صينية «موارنة» بالفرن، وفي «علوية» مطفايين بحامض وفي شوربة «نصيرية».
ـ لا خيي لا. اشوي لي شي «كردي» ع ذوقك، ما تستويه كتير، ورش لي شوية «متاولة» ع وجو، وجيب لي شي صحن مشكل «لاتين» و«بروتستانت» وشي راسين «أرثوذكس» إذا فيه.
ـ فيه.
ـ عال، «وفروتو» شو عندك؟
ـ في سوداني ع شوكولا. و«قوات أمن عربية» مع قطر.
ـ بدي من التاني.
ـ وغيرو استاذ... بتشرب شي؟
ـ فتحلي شي قنينة غازا؟
ـ عال عال.
ـ يا با؟
ـ نعم.
ـ شي صحن «كواتلي» بحليب إذا بتريد!
ـ صحن «كواتلي» بحليب للأستاذ.
ـ حاضر.

غادة السمان: حروب عمري

ينقذف السؤال في وجهك بكثير من الدهاء: «يوم من حياتك في الحرب، اكتب عنه». لا يحدد السؤال أي حرب منها
قل لي حربك أقل لك من أنت. قد تفترض ان المقصود هو حربنا اللبنانية بمناسبة مرور ربع قرن

دونما تعاطف وطني منه مع قوى (العدالة) والتبديل، وأقسمت ان أرحل وفعلت ولم أقسم على عدم العودة، وقد عدت، ولكنني احتفظت ببيتي في باريس على حاله فقد علمني ذلك الحبيب العسير المدعو بالوطن ان عليّ ان أكون دوماً مستعدة لهجره كي أظل على قيد الحياة والجنون لأحبه وأحبه..
أم أحدثك عن «أم المعارك الأدبية» يوم نشرت رسائل غسان كنفاني وتم نشر غسيل عمري الموسخ في كل مكان من قبل أصحاب الأيدي القذرة؟
لا أعرف جداراً في قلبي لم ينخره رصاص الصديق قبل العدو،
وما من عمود في روحي إلا وقد تحول الى مشنقة لرفيق أو «عديق»،
وما من باب في دهاليز أحزاني لم تقتحمه جزمة مدججة بمسامير القسوة،
وها أنا شاهدة على عمر من الحروب، وذاكرتي نصب تذكاري لمئات الجلادين والضحايا والباكين والمتباكين والصادقين والدجالين، وفي قاعي حديقة سرية لم تطأها قدم، أهرب إليها من احتضار الشعر والعذوبة والرهافة ودفء القلب.
أيامي كلها كانت حرباً! الحب حرب بأدوات الأمنيات المستحيلة ووهم الفرح ورغد الطعنات، والصداقة حرب، والحوار الصحافي حرب بأحصنة طروادة والكل مهزوم بغياب التعاطف الإنساني، والعمر رقصة فوق الشطرنج المفخخ بالألغام، وكل لحظة صدق (وبالتالي لحظة ضعف)، وكل خفقة قد تودي بك إذا كنت هش القلب مثلي. خذ قلبي من حروبه واقطعه كتفاحة. سينزف منه سائل الرماد كالدم المخثر ببرد المصافحات اللزجة الضفدعية.
هل أحدثك عن حربي في الغربة ضد «الحنين»، وحربي في الوطن ضد «الحنين الى الغربة»؟
هل أنتحب على كتفك لموت الفروسية والرقة والهشامة في حروبنا لحساب أزمنة متوحشة تزداد وحشة وتوحشا بجبننا عن مقارعتها أو ضجرنا من ذلك حتى اللامبالاة؟
أم أقول لك بلطف قناعيّ وتسامح مزعوم وكذب فاضح مطلوب اجتماعيا:
كانت حربا للآخرين وانقضت، وها نحن نرقص كلنا دبكة الوطنيات والإزدهار ونتابع وحدنا تحرير الوطن العربي من محيط الظلمات الى خليج التنهدات، فما «أروعنا»!

يعقوب الشدراوي: الكوميديا البشرية

كنا حول الطاولة نقتحم الحرب، نحمل على الأعادي ونهجم وننقض دون أن نفر، ولو قيد أنملة.

أخذت أراقب تغير الألوان من حولي، الأبيض الى رمادي، ثم.. يقتم تدريجا. والأحمر يتحول الى اغمر وكالنمل يدب الأسود في الألوان. فتنار بعض الشموع وفي نوافذ متفرقة قليلة، ويتراءى لي جميع الزملاء بوجوههم وقاماتهم وحضورهم البديع وأهتف بهم أيها الفنانون لم لا نشترك جميعا في مسرحية شكسبيرية أو مأساة يونانية؟! ثم فاجأتني القنابل المضيئة فأعتم مشروعي.
أحببت أناس الحرب الملتهبة، الذين ذهبوا إلى المدارس تحت القصف، الذين رمّموا بيوتهم، الذين وقفوا بالصف أمام الأفران، الذين عملوا وكتبوا ورسموا على ضوء الشمعة، الذين هزت قلوبهم المدافع والطائرات والصواريخ والسيارات المفخخة... والذين ولدوا في الملاجئ...
ولما أوضح فرجيلو لدنتي ان هذه هي إرادة السماء «اهتز السهل المظلم بعنف شديد... لقد بعثت أرض الدموع ريحاً عاتية. أبرقت ضوءاً قرمزي اللون، غلب عندي كل المشاعر. فسقطت كرجل يأخذه النوم».

رشيد الضعيف: الرجل الذي قُتل في ثيابي

مدعوتي أفسدت عليّ ليلتي.
فقد قامت إلى الحمام بعد وقت من وصولها، وقتلت بمفردها فأرا دون عون مني، ودون أن تجعلني أشعر بشيء، إلا بضجة غامضة في الحمام دامت قليلا، لم أفهم لها سببا ولا معنى، وحين عادت الى الصالون قالت لي: قتلتلك فارة»!
ـ «لي!» قلت لها، «لي!» وانتصبت كمن لسعته عقرب مختبئة في قماش كنبته، فأوقعت الشمعة التي كانت تضيء الصالون، فاضطربت هذه الضيفة وبدا عليها أنها لم تفهم شيئا.
غريب!
فقررت ألا تبيت هذه الزائرة عندي بعد الذي جرى، مهما بدوت قليل الذوق (أنا الذي ألححت عليها بالمجيء حتى اضطرت لأن تحتال بألف حيلة لإقناع أهلها بالسماح لها بالنوم «عند صديقتها»). ولحسن حظي كان المساء ما يزال في أوله والليل لم يتقدم بعد، وكانت الأجواء الأمنية هادئة نسبيا، لا شيء في الأحياء، لا خطف ولا اشتباكات، فقط رجع طلقات متفرقة على خطوط التماس، فطلبت منها أن تنصرف فألححت عليّ تريد معرفة السبب، فأتيت بجريدة الصباح وقربتها من الشمعة وطلبت منها أن تنظر جيدا إلى صورة في إحدى الصفحات الداخلية، وقلت لها: أترين هذا الرجل القتيل البادي في الصورة؟ إنه هو الذي كان يحتل شقتي حتى لحظة مقتله أمس!

الرسمان (ص٩ و١٠) من الفنان حسن جوني لهذا التحقيق

شلة تعيش سلمها بانتظار سلم الآخرين.
وردا على شائعة القصف المجنون، أطلقت إحدى أفراد شلتنا ذات الخيال، شائعة أخرى مفادها انه في ليلة عيد الميلاد قررت الشلة ان تحتفل بعضها ببعض وذلك بإقامة سهرة تنكرية مقنعة على ان تقام هذه السهرة المتنكرة في طابق علوي مكشوف للقصف...
صدقت الشلة شائعتها، وانهمك الجميع بتحضير الشائعة الساهرة المتنكرة، تاركين أمر شائعة قصف ليلة الميلاد لحكام البلاد، وبسرعة ربحت إشاعتنا الجولة الأولى. لم نعد نتكلم، ونحن الذين لا نسكت، إلا عن السهرة التنكرية وقررنا اننا سنحييها غصبا عن القصف عند هدى ومحمد. وكانا يسكنان بالفعل الطابق الأعلى في بناية شقة تتمتع ببلكون فسيح يطل على البحر والجبل، شقة ملعونة بمقاييس الحرب لأنها تتطلب تسلق الدرج حتى الطابة

الذي يأتي لينام في بيت جارنا حسام الذي هجره وعائلته، وبيت حسام هذا في الطابق السادس. قلت أدعو صديقي للنوم عندي فبيتي في الطابق الرابع أكثر أمانا إذ إنه «مركوب». تأخر نعمة وغالبني النعاس. ولكن قبل أن أنام عليّ أن أحدد مصدر القصف لأعرف الزاوية الأكثر أمنا وحماية. وبما أنني جاهل في الأمور العسكرية أو لعله الخوف الذي منعني من تحديد مصدر القذائف، هل تأتي من الشرق أو الجنوب أم من الشمال ربما. فحرت في أمري، وبينما أنا على هذه الحال من المعاينة والسؤال جاءتني حكاية مالك الحزين والثعلب المحتال.
قال الثعلب لمالك الحزين: قل لي ماذا تفعل إذا جاءتك الريح من جهة اليمين؟ قال: أرفع جانحي الأيمن وأخبئ رأسي في ظله. قال: وإذا جاءتك من جهة اليسار؟ قال: أرفع جانحي الأيسر وأحمي رأسي من الريح. وقال: وإذا أتتك الريح من كل جانب؟ قال:

20000414-0006-2

اعتزاز وفخر نوع من المساهمة الفعلية في إحياء السياحة في هذا البلد، خاصة وإنو الموسم السياحي كان معرضا لأن يفشل وذلك طبعا، تحت تأثير المؤامرات الخارجية التي يظن مدبروها انهم يستطيعون من خلال مؤامراتهم الخسيسة ضرب لبنان اقتصاديا وضرب الازدهار السياحي وضرب الاصطياف كمان، نعم استاذ بهيج؟

- بالحقيقة بدأت فكرة... الفكرة وبشكل مبادرة فردية مني شخصيا.

- عندما لاحظت إنو الذوق عند اللبناني تغير وتطور

بعد ٣٠ سنة، نتيجة لهذا التفاعل الرائع النموذجي بين الحضارات، ونتيجة طبيعية لكون لبنان همزة وصل بين الشرق والغرب. وطموحات اللبناني، بطبيعتو ما توقف عند حد، بتعرف حضرتك.

- طبعا. طبعا!

- فكان ان لمست، مثلا، خلال هذه الأحداث إنو اللبناني توجه الى اللحم البشري، رغبة، بعتقد بتكون رغبة منه في التغيير. ووجد اللبناني إنو ربما أكل اللحم البشري هو الوسيلة الوحيدة أو بقدر قول هو الوسيلة المثلى لعملية الانصهار الفعلية بين أفراد المجتمع الواحد، المنصهر حتماً في «بوطقة» وحدي.

- يا «سعيد».

- نعم معلمي!

- قشرلي «سرياني» للأستاذ.

- لا. لا. ممنون، بترجاك صايم!

- يعني لما الإنسان اللبناني، بتعرف لنكملك الحديث...

- إيه نعم.

- ... بياكل خيو الإنسان، بفتكر إنو بيتوصل ينصهر معو على أكمل وجه. بياكلو وبيهضمو كمادة وبالتالي بيصهرو في ذاتو الروحية والمعنوية.

- إيه ما في شك إنو...

- صحن «شيعة» متبل عالـ (٤).

- وأنا أرى إنو اللبناني خطا عدة خطوات في هذا المجال، اللبناني اللي صار يربح.. إنسان، تطور طبيعيا، وصار ياكل إنسان. واللبناني خلاق، مثل ما سبق وقلتلك، واللبناني مبدع دوما، فهو لم يزل يكتشف الجديد، ولم يزل السباق في، بعتقد كل الميادين، ونحن طبعا حبينا نجاري التطور اللبناني ونلبي رغباتو، فكانت فكرة إنشاء هذا المطعم الوطني. ومن هنا، كانت تسمية مطعم الانصهار، يعني بقصد أنا، اي انصهار الإنسان في الإنسان.

- طيب استاذ «بهيج» يمكن المواطنين بيحبو ياخدو صورة واضحة كيف عم تقدروا تامنوا حاجات المطعم من لحوم.

- في ما يتعلق بالموضوع يعني، بهالموضوع بالذات...

- إيه نعم.

- عم نتعامل مع بعض الدكاكين اللي عم بتلبينا بسرعة. مثلا تعاقدنا مع حاجز ع العدلية، يعني هالحاجز، عم يقدر يامن لنا كمية لا يستهان بها من الإخوان «السنة» و«الشيعة» وكذلك تعاقدنا مع حاجز عالبربير عم يأمنا بدورو كل ما نحتاجه من الموارنة. وقررنا مؤخرا أن نعمل بالتنسيق مع جميع الفرقاء، ونؤمن أكبر تشكيلة ممكنة من اللحوم، والحمد لله ماشي الحال.

- يا خيي انا طالب باكستاني مسلوق، شو حاطط على اندلاعها. من طرفي لا أستطيع ان افعل ذلك، فحياتي كلها كانت حربا متلاحقة بمعنى ما، ولكل يوم حربه وسلمه وقتلاه وفعل ندامته.

حربنا اللبنانية لم تكن أقسى حروب عمري بل واحدة منها. لقد ولدت على حافة مقبرة لحرب عالمية لها منتصر ومهزوم وتعمدت طفولتي بحرب فلسطين مع «إسرائيل المزعومة» وطعنت صباي حرب ١٩٦٧ وهزيمتنا فيها الملقبة بالنكسة بعد «النكبة» ثم انفجرت الحرب اللبنانية / العربية / العالمية ولما تنته بعد بالرغم من دبكة السلام ومعزوفاتها.

داخل تلك الحروب كنت أعيش حروبي مع جذور هزائمنا كلها الملقبة بالتخلف،

... وكان عليّ أيضا أن أخوض حروبي ضد نفسي، فأنا جزء من السجادة العربية، وقطبة» أخرى فيها مخلخلة، أي ببساطة أنا من بعض ذلك النسيج الذي أحاربه بحب وأراه بعين محلية لا بعين «استشراقية».

وفوق ذلك كله شاءت لي أقداري أن أعيش حربا إضافية هي حربي الاجتماعية منذ حكمت عليّ الآلهة بالسجن داخل جسد أنثى وعقاب ذلك في مجتمعاتنا التهاويل والاحتقار المسبق أو التدليل غير المبرر، هذا الى جانب معاركي كمواطنة من العالم الثالث.

فأي يوم من حروبي اصطفي ولا فضل ليوم على آخر إلا بالهزائم والأحزان؟

تارة، يتغلب عليّ أسلوبي الضاحك في معانقة بشاعات حروبي وجمالياتها، فأختار لك أياما بين الموت والقهقهة. وتارة أخرى أكاد أنزلق الى فخ الدراما على حافة (النق) وأحجم بسرعة لقلة درايتي بموهبة الشكوى.

هل أروي لك مثلا (إكراما للمناسبة) أياما من تلك الحروب الدامية الهزلية؟ هل أحدثك عن قهقهاتي السوريالية المالحة، ولا مبالاتي المطعونة بالاستسلام ذلك اليوم حين ذهبت مع زميلتي الصحافية فاطمة ناعورة السردوك الى البحر للسباحة مع أطفالنا (يومئذ) وحين ضمتنا متعة الأمواج أخيرا بالقرب من فندق الريفييرا على الكورنيش وضحك حازم ورمزي وريم تحت الشمس بعد طول سجن في الملاجئ، جاء مسلحون وطلبوا منا مغادرة الماء قليلا لأنهم يريدون قتل أحد السابحين! وكأن الأمر عادي جدا يحدث في كل شاطئ فقد انسحبنا من البحر بهدوء ريثما يتم قتل الرجل المجهول على أيدي مجهولين وتعلو راية «الحق» ونعود الى السباحة! ويبدو انهم كانوا أقل ألفة مع الموت منا إذ اكتفوا بخطفه وعدنا الى الماء والسباحة ولعق البوظة ومنازلة الأسماك. هل أروي لك يوم قايضت كتابي «اعتقال لحظة هاربة» بتنكة من البنزين وسطّرت ذلك في الإهداء؟

أم تريد مني أن أحدثك عن الموتى الذين أجهل هوياتهم وتساقطوا حول بيتي في «حرب الفنادق» وعجزت عن وهبهم جرعة الماء الأخيرة وهم يحتضرون بفضل القناص الرديء التصويب مقابل بيتي، الذي فشل في قتلهم من الرصاصة الأولى؟

هل أحدثك عن الناس (المهمين) الذين جعلت مني أيام الحرب شاهدة على تحولاتهم من الهدف المعلن «الثورة» الى الهدف الحقيقي: «الثروة»؟

هل أحدثك عن ليلة ذهاب زوجي لإحضار البنزين لمحرك توليد الكهرباء على الشرفة وانفجار معركة ٧ شباط بقذائف الدبابات تحت نوافذي؟ ليلتها لم يعد زوجي وكانت الحمى تلتهم طفلي المذعور في الدهليز ولما حمي الوطيس، فاجأتنا قذيفة محشوة بمواد شديدة الانفجار خلناها - القنبلة النووية. انبطح الأصحاب تحت الطاولة، أما أنا وعصام فلم نهرب بل انكفأنا الى المرآب وأوينا بين السيارات المترفة.

قال عصام: انه جحيم الحصار.

قلت: وأي جحيم! أين منه جحيم دانتي الذي حفر على بوابته «هنا» الطريق الى مدينة العذاب، هنا الطريق الى الألم الأبدي، هنا الطريق الى القوم الهالكين».

قال عصام: وهكذا تتحول الكوميديا الإلهية الى كوميديا من صنع البشر، ثم ابتسم وأضاف: هل أنت سعيد؟

قلت: يقولون إن السعادة مملة وكثيرا ما فكرت بهذا القول، وأنا نائم بعينين مفتوحتين، وكنت دوما أجيب نفسي: أجل، لأن الناس المضجرين طالما كانوا سعداء، أما الناس الذين على قيمة فيجعلون من أنفسهم حكماء، ويسممون حياتهم وكل ما حولهم. أود لو استطعت أن أخترق الأشياء ببساطة، كم يكون ذلك حسنا، ويكون حسنا أيضا لو لم يتدمر هذا البدن وهذه الروح، لكان ذلك حسنا... حسنا جدا.

قال عصام: أيكون آخر النفق أول الطريق؟

فقلت: كالموت الذي لا حياة بدونه. تكون أول الطريق من آخر النفق.

قال عصام: كأنك تستسلم؟

قلت: كأنني هكذا.

قال عصام: من أين إذن يأتيك الصبر على الحياة؟

قلت: هل تعتقد بأنني أعرف جوابا عن سؤالك؟

ولما صمت أبو الهول عاد كل منا الى وجاره. عائلتي ارتحلت الى مكان، لعله يؤمن لها الحماية، وبقيت أنا هنا ليس، من أجل الحفاظ على أملاكي وأطيافي وأموالي ومعاملي، بل ببساطة كلية: لأنني اخترت بيروت ولا داعي لأي سؤال.

قعدت أفكر في المناخ الذي يلف بشر هذه البقعة من الأرض. وأحلل وأحاول معرفة عناصر وخفايا هذا «الزلزال الذي عصف ويعصف وسيعصف... ضمير كل رجل، وقلب كل امرأة، وشوق كل طفل. وكيف تحول البلد الى بيت للأشباح...

آه، كم يؤلمني التفكير، يوجعني. أحيانا لا أستطيع النوم. أقوم باكرا جدا والفجر لا يزال بعيدا. عليك أن تأتي بأفكار جديدة. من أين الأفكار؟ ولكن لا بد من أفكار جديدة.

في عز ذلك الحر، كنت أشعر بالصقيع. حولك أتون نار وفي داخلك البرد حتى التجمد. أهلي ماتوا ومن تبقى يسكن في بيت بعيد، لعلهم يكرمون زوجتي وطفلي.

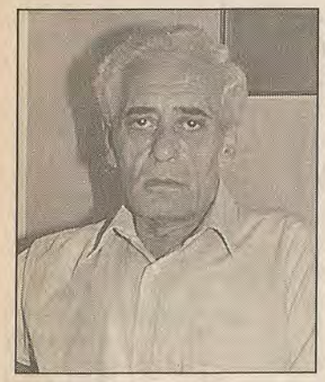

أصعب ما يكون أن تبني في ذاتك علاقة واضحة بينك وبين الوقائع في وقت قصير وعلى أساس هذا الوضوح، تهدأ. تتأقلم. وتتأمل. كم نحن بحاجة الى الراحة. كم نحن بحاجة الى النعم. كم نحن بحاجة لمشاهدة روائع الرسامين العظام. كم نحن بحاجة الى أرمسترونغ، كم كان جميلا زياد الرحباني في «هدوء نسبي».

اندفعت الى شرفة البيت. إنه المغيب، سكون مخيف، وعلى الطاولة بجانبي قنينة من الماء الزلال، اشتريتها من المقهى الوحيد. فتحتها. سكبت منها دمعتين على رأس الزريعة اليابسة ووضعت فوهة القنينة على فمي وأخذت أكركع منها حتى ارتويت، ثم فنقزت وابتعدت خطوات وقالت: كيف عرفت أنه هو؟ قلت لها أنظري هذه الجاكيت الجلدية الفاتحة اللون التي يلبسها، وانظري الى قصتها وأزرارها، وقلت لها انظري الى هذا الحذاء الذي يلبسه، والذي لا يوجد مثله في لبنان، أليست هذه هي الجاكيت التي نصحتني أنت بشرائها من محل في نزلة مستشفى الجامعة، تحت شارع الحمراء؟ ألا تذكرين أنك قلت لي انها جميلة «وبترحلك» ومعروضة بسعر معقول! وهذا الحذاء، ليس في البلد كله شبيه له، فقد أرسله لي أخي من كاليفورنيا بناءً على طلبي وحسب الشروط التي حددتها له، لأنني بعد إصابتي بشظايا من صاروخ غراد، اضطررت الى إجراء عملية وصل أعصاب في فرنسا حتى تعود الحركة الى كتفي ويدي المشلولتين، وقد أخذ الطبيب نصف متر أعصاب من رجلي ليعيد وصل ما انقطع بين عنقي وكتفي، وهذا ما أفقدني كل إحساس في قدمي، فصار لزاماً عليّ أن ألبس أحذية من نوع محدد. فانظري الى هذا الحذاء! انظري إلى سماكة نعله وانخفاضه عند الكاحل! لقد أفقت هذا الصباح وقمت فورا أشتري جريدة، قبل أن أتروق، كأن أحدا حقني على ذلك، وعندما وقع نظري على هذه الصورة «كان فيي عقل وطار!»، وقلت في نفسي: يا رشيد إذا كنت ما زلت تنتظر يوما فهذا هو يومك! استعد شقتك فقد قُتل محتلها!

استقللت سيارة الى بيروت فورا، سكارسا! وفتحت الباب فانفتح! لم يغير المفتاح لكثرة ما كان يثق بنفسه! لم يتوقع أن تزعجه «بسينة» مثلي. وكان محقا، لأن كل ما فعلته بعدما بلغني نبأ احتلاله بيتي (كنت في زيارة للأهل عدة أيام)، هو توسيط من اعتقدت أن له مونة عليه. وأحسست حين صرت صراحة في بيتي بعد غياب شهر كامل بفرح كبير ورحت أجول فيه.. كان لا شك يستعمله للانفراد بعشيقاته، وكان يأتي إليه وحده لأن فراشا واحدا كان مستعملا فقط، وقرب هذا الفراش وقعت على ضالتي: كلاشن! فتناولته، فلن يحسن استعماله أحد مثلي بعد اليوم.

أحسست أنني أقوى من الجيش السوفياتي في عز مجده، فمن هذا الكلب الذي يمكن أن يجرؤ على طردي من بيتي بعد الآن.

وحين وصلت زائرتي كان البيت أصبح نظيفا يلمع كالمرآة، كما تقول والدتي، فقد أمضيت النهار أنظفه حتى أمحو كل أثر غريب فيه، فمن أين جاءت هذه الفار لتنغص عليّ ليلتي! لماذا لم تنادني زائرتي لمعونة، لماذا لم تصرخ مستغيثة... لماذا أنا هنا إذن! قصرفتها.

صرفتها وأطفأت الشمعة ووضعت الكلاشن في حضني وانتظرت، فليس من الحكمة الا يُحسب حساب للخطأ.

وقبل أن أغفو قلت ربما كان عليّ، لأطمئن نهائيا، أن أزور أهله بحجة تعزيتهم، فأتأكد من أنه هو الذي قُتل... إلى الأبد.

برهان علوية: فرح تنكري

في أحد أيام الحرب، قررت الشائعات ان ليلة عيد الميلاد ستكون ليلة قصف مجنون على مدينة بيروت... كان ذلك في أواخر عام ٨٣، وكنا نحن شلة ودودة تحارب الحرب بالود والكلام والأحلام، كانت أرفع جناحي وادخل رأسي بينهما وأمسك الأرض برجلي فأصبح لا أرى ولا أشعر بشيء. قال الثعلب: أنتم معشر الطير قد وهبكم الله من سلطان لم يكن لنا معشر الحيوان، بالله عليك أرني ما كنت تقول فترضي بعض ما عندي من الفضول. فعل مالك الحزين ما قاله فانقض عليه الثعلب وأكله.

قلت لا. بعد الذي صار، لن أكون مالك الحزين الحمار. وبعد طول تفكير قررت أن أنام في الممر بين الغرف موجها وجهي ناحية الحمام فإذا صار ما صار أقفز إليه وأنجو بنفسي.

نمت، ولا أدري كم مضى من الوقت، وجاءت القذيفة وكأنها سقطت على السقيفة، يا عون الله. وقفزت قفزة واحدة وكنت في حمام البيت. يا للعجب، وجدت جارتي واقفة ترتجف من الخوف. يا الله كيف استطاعت هذه المخلوقة أن تدخل بيتي وتصل الى الحمام وباب البيت الخارجي مقفل وموصد. الحمد لله ع السلامة يا جار - الله يسلمك. جاءت في البناية.. لا أدري أين. قالت.

- كيف استطعت أن تصلي الى هنا وباب البيت مقفل!؟ قلت..

مقفل!؟ أين بقي أبواب. تخلعت كلها.. أنظر باب بيتك فقد طار من مكانه. قلت: ولكن كيف وصلت الى حمامنا!؟ - أي حمام سلامة عقلك يا أستاذ. نحن خارج بيوتنا. نحن على مطلع الدرج. لشدة خجلي راح عني الخوف. ودرت دورات حول نفسي محاولاً أن أستعيد وعيي، وما نبهني إلا جارٌ لنا نزل من الطبقات العليا وقال: يا حرام.. جاءت في بيت حسام. ما بقي منه شيء. صار مثل الخيمة لم يبق منه لا سقف ولا حيطان.. جمدت وقلت: راح نعمة ورحت أصعد الدرج كالمجنون، دخلت بيت حسام متلمسا أرضه بقدمي، ساعدني جار لي بمصباحه، عاينت ما كان يدعى غرفة النوم. حاولت أن أجد آثار أشلاء ودماء. ولكني

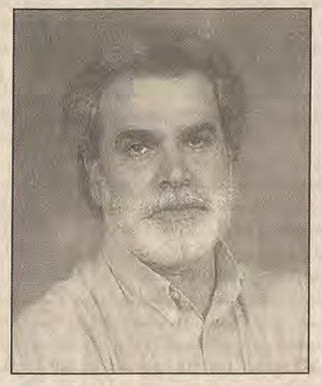

حمدت الله حمدا كثيرا إذ انني لم أعثر له على أثر، وحيث ألهمه ألا يأتي الليلة حتى لا يلقى حتفه.

نزلت الدرج، وأنا أضحك كمن أصابه مس. وقبل أن أصل الى باب البيت رأيت جارتي تدخل مسرعة الى بيتها وقبل أن تقفل الباب قالت: سلامتك يا أستاذ.

قضيت ما تبقى من تلك الليلة بين سهو وغفو، وما أن انبلج نور الصباح نظرت ناحية بيت حسام فوجدته فعلا كالخيمة. وآلمني ما رأيت، فالشراشف والملاحف وثياب أطفاله معلقة على أشرطة الكهرباء وعلى مناشر غسيل الشقق المجاورة.. دمعت عيناي ثم أجهشت بالبكاء.

تقول زوجتي إن الشيب قد غزا شعر رأسي منذ تلك الليلة. أما أنا فإنني أعرف بأني شبت بسبب تلك الليلة وغيرها.

في مثل هذه الروايات نقول، تذكر ولا تعاد. ولكنني ما زلت خائفا من عودتها. من يستطيع أن يزيل مني هذا الإحساس بأني أنا مالك الحزين؟! فما زلت أشعر بأن الريح ممكن أن تعصف من جديد. حقيقة أو وهماً. وما زال الثعلب يغرينا بالاعيبه وحتى الآن لم نفعل شيئا حتى نتحاشى هبوب الريح من اليمين ومن اليسار وساعتئذ نحار أين نخبئ رأسنا حتى لا يأكلنا ذلك الثعلب المحتال.

من يلقي عليه التحية شيكاً على بياض مكتوباً عليه بدون رصيد. إحداثا تنكرت بزي سكان المريخ، وآخر تنكر بزي قصيدة عمودية وكان فعلا طويل القامة، وآخر تنكر بخلع ثيابه الخارجية وآخر بشكل خط الاستواء، وأخرى بملكة غابات الأمازون. وانطلقنا وسافرنا بعيدا الى مدينة أخرى وصورنا رحلتنا من أولها الى آخرها.

فجأة وبعد مرور ساعات لم نحس بها، هتف أحدنا، لم نسمع صوت الشائعة الأولى، شائعة قصف عيد الميلاد، وردت أخرى «بلى أنا سمعت ولكن صوتنا كان أقوى».

وعندما تعبت شائعتنا من الغناء والضحك والقول ووو. عادت من مدينتها الوهمية الى مدينتها الحقيقية، أعني بيروت، وصل سكوت النهايات، نهايات الأوقات التي لا تنسى. قطعت أنا هذا السكوت المريب، بأن دسست شريط الفيديو الذي كان يصور كل ما حدث لنا ومعنا في تلك الليلة، داخل جهاز الفيديو، وتحلقنا جميعنا حول شاشة التلفزيون صامتين. وظللنا صامتين مدة ساعات ونحن نتفرج على أنفسنا مسترجعين مع صورنا على الشريط سفرتنا التي لم نكن نود الرجوع منها، واستمر المشهد حتى الصباح، نحن، ونحن ونحن في بيروت نتفرج على نحن في ريو دي جانيرو. وفي الصباح كان افتراقنا. نوع من السؤال، لماذا لم نبق هناك ونسكن في شائعتنا؟

رفيق علي أحمد: تلك الليلة وغيرها

اشتد القصف يومها، على المنطقة التي يقع فيها بيتي. هربت زوجتي مع ابنتا الى بلدة دير القمر وبقيت وحدي في بيروت أصارع الخوف والضجر.

كل شيء في ترقب ووجوم مع غروب شمس هذا اليوم. حتى اليمامات التي كان يؤنسني مبيتها كل مساء في الشجرة المعمرة أمام المبنى، جاءت اليوم الى مبيتها من دون طقس المسامرة، الذي عوّدتنا عليه عشية كل يوم.

خيم الظلام. أضأت شمعة وانتظرت صديقي نعمة

٣ نيسان ٧٥: كي لا ننسى ـ ٣ نيسان ٢٠٠٠: حتى لا تتكرر

إيمان حميدان يونس: موت كرسي

كان قد مرّ ما يقارب العام من عمر الحرب في ذلك النهار. رغم ذلك، بقينا نحن أولاد قرى الجبل نجلس على شرفاتنا العالية نتفرج على حرب تدور هناك على الساحل، في مكان ما يوازي سطح البحر. نتفرج من بيوتنا، التي بُنيت بأحجار مصقولة قوية، على أمكنة قريبة بعيدة. نرى أضواءها ترتفع وتلمع، لكنها لا تصل الى سمائنا.. الى بيوتنا، إلينا. نقول لا بد انها بعيدة، تلك المفرقعات النارية التي تنير الظلام.

١١ آذار ١٩٧٦، يوم انقلاب الأحدب. هكذا أسموه في التلفزيون والجرائد والإذاعات. أذكر انه يوم خميس. أذكر أيضا ان الطقس كان غائما. كان

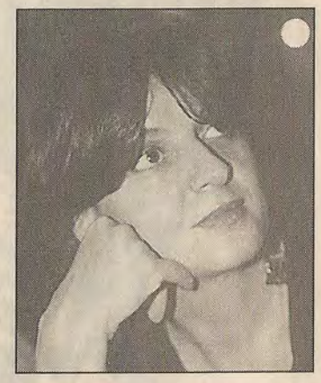

ربيعا مختلفا غائما ورماديا. حسبت ان الرماد يرتفع من ساحل المدينة، يرتفع من ضبابها؛ يأتي رماد المدينة إليّ بقوة الحرب. تدفعه دفعا نحوي كأنها تلبطه، كمولود لقيط. كأن الفضاء ضاقت به هناك، فجاء الى هنا.

أسموه يوم انقلاب الأحدب، وأسمّيه يوم مرضي الطويل الذي أجبرني على التغيب عن المدرسة والبقاء في الفراش. فراش ملاصق لنافذة عريضة تطل على الساحل.. على بيروت:

وحدي. لا أحد في البيت. أنظر عبر النافذة وأنسى أنني وحدي. الفوطة المبللة بالماء البارد والخل ما زالت على جبهتي. دافئة. تركتها وقتا طويلا. في لحظة سهوي لا بد انني غفوت. وجه أمي التي غابت قبل الحرب، ورائحة الخل امتزجا بحلم متكرر حيث أراني أدخل نفس البيت، بيت إيلي حرب، صديقي الذي قُتل وهو أعزل منذ ستة أشهر. أراه كما رأيته في المرة الأخيرة. عيناه لم تكونا عيني ميت، بل عينا من أصابه النعاس فجأة فسها. أراني وسط أمه، أخته، عمته وجدته. لم أر والده في نومي ولا حتى شقيقه. حلم متكرر مليء بالنساء، نساء إيلي، أقدم إليهنّ اعتذاري. أعتذر عن موته... كأنني سببه.

لم يكن قد تراكم العنف بعد، لم يكن قد تراكم كما تراكم الغبار على الكتب التي كنا نقرأها لنناقشها في الإجتماعات. لم أعد أتكلم عن إيلي منذ حادث اختطافه وقتله. لم أعد أيضا أتكلم عما يجري في الخارج. صرت أكتب. إيلي صار غريبا. لفظ بفعل قتله وابتعد. موته رسم الحدود وأعاد ترتيب الذاكرة. أعاد ترتيبها كما يليق بذاكرة معلنة أن تكون.

رسائل وأوراق مُزقت من الدفاتر رُسمت عليها عصافير ملوّنة وقطط وأزهار وشموع. هذا ما وصلني في بداية المساء من صديقاتي في المدرسة. رسائل مشتركة كتبتها وفاء وليلى وجومانة وسهى تخبر قصة الرصاصة الطائشة التي دخلت الصف. رصاصة «خطاط»، هكذا سمّيناها، دخلت عبر نافذة الصف واستقرت في ظهر كرسي فارغ يقع في نهاية القاعة قرب النافذة. كان الكرسي فارغا بسبب غيابي.

لم نعد إلى المدرسة منذ ذلك اليوم. أقفلت المدارس في منطقة عاليه وبدأت حرب الجبل. حروب صغيرة توزعت على حدود القرى وفرزتها. فرزت سكانها. صرت أعي حينها أنني درزية وأنني محمية في هذا المكان بالذات، حماية كي أحظى بها عليّ أن أخضع لامتحان انتماء وأن أنجح.

منذ ذلك اليوم أمور كثيرة تغيرت. طرقات أخرى نمشي عليها. منازل جديدة ننتقل إليها. واجهات بيوت وشرفات تُسوّر بأكداس من أكياس الرمل، شرفات فقدت وظيفتها، من عليها رأينا الحرب تحتفل بأضوائها في البعيد. لم نعد نراها الآن. انها هنا.

لا مدارس، لا بيوت، لا أهل. فقط نحن وطرقات جديدة. ساحات صادرناها كانت لأهلنا.. ما أجمل الحرب!

أزقة قديمة وطرقات استعادت وظيفتها. طرقات أخرى صارت مخيفة: خندق بوعتمة، عين الطاحون، المشرح، القلع، الشاغور...».

صار للطرقات معان أخرى. طرقات كانت للهو، ما عدنا نمشي فيها. نمشي في طرقات أخرى، ليس بهدف المشي بل لنصل إلى أمكنة أكثر أمانا.

حرب في البعيد وحرب هنا. احتمال موتنا في أي لحظة واحتمال موت الآخرين. يموتون وتضيق مساحة حياتنا. موتهم احتل جزءا منها. في مساحة ضيقة حوصرنا بالموت وبغياب الآخرين.

تتشابه أيام الحرب. تختلف فقط بتفاوت وقع عنفها علينا. نذكر يوما لأنه حفر فينا، استقر في داخلنا واستوطن كحاسّة جديدة.

دخلت رصاص مكان جدي الغائب، واستقرت في جسد الكرسي بدلاً مني. حين أذكر هذا اليوم أذكر أيضا أن إيلي قتل قبل ستة أشهر من هذا التاريخ، وأنني بقيت أحلم به.

ما أذكره جيداً أيضاً انه في ليلة اليوم الذي استقرت الرصاصة داخل الكرسي، لم أحلم بإيلي، ولم أعتذر من نسائه. لم أعد أحلم. فقط صرت أخاف.

عباس بيضون: شبح بيار

طال وقوفنا دون أن نحس ضجرا. فالزمن مر علينا كما يمر على الرمل والأمواج والحجارة. كنا هكذا دون انتظار، ولا أعرف كيف بلغنا أمر أن نقترب من الدبابات فاقتربنا وضاعت الدبابات بين الجموع التي أخذت تطوف حولها كالحجيج. لا أعرف كيف بلغنا أن يفترق الرجال عن النساء، ولا كيف بلغنا أن تبقى النساء ويتابع الرجال على الشاطئ. سرنا جميعا بهذا الأمر غير المسموع، وبقوة خمس دبابات، مضينا في سيرنا البطيء على أرض الشاطئ دون أن يخطر لنا النظر إلى الخلف.

شعرت فقط بمقاومة الرمل الرطب والمتماسك لطرقة حذائي. بلغنا أول الموج وصرنا نخوض في الزبد. كنا في عرض هواء البحر وضوء الظهيرة الذي يلعب على طول لسان الشاطئ. أحياني قليلا هذا الهواء الحر، شاعرا بأنني أتخلص بذلك من قساوة

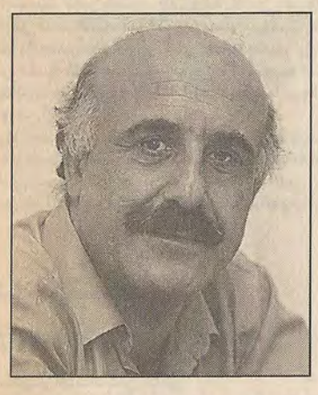

ثيابي التي غدت ثقيلة بنوم الملجأ ورطوبة ترابه. لاح لنا رتل دبابات وسمعت دوي انفجارات مكتوما. كان صوتا ينتهي بشبه اختناق ويتبدد كأن الرمل يمتصه ويمتص معه كل صوت آخر. كنا وراء الدبابات التي تقصف المخيم المقابل، نوعا من جدار بشري لحمايتها. فجأة رأيت امرأة جنبي. أخذتني من يدي وأخرجتني من الصف. أخذت خطواتي تنغرز في الرمل الجاف وأنا أتبعها عائدا.

جاءت دبابات كثيرة من جهة الرمل مسرعة ووقفت بنظام خلف الدبابات الخمس، تبعثر حولها شبان تغلبوا على صمت الجنود الذين فيها وتبادلوا معهم إشارات وكلمات. كان بعضهم يلكن بالعربية متوقعا أن تكون هذه لغة الإسرائيليين. انتشرنا في العراء وجلسنا على بُسط مدت على الرمل. رأينا الدبابات بعد وقت، تنتظم أزواجا خلف بعضها وتخرج ببطء من خلف الاستراحة وتنعطف الى الشارع. رأيناها من على الرمل، تتابع الى الشارع الى ان تبلغ أطراف المدينة، تتوقف هناك وتتوزع على نصف قوس وتبدأ برمي مركز على أول بناية تواجهها. رمي منتظم: واحد، اثنان، واحد، اثنان، انتظام الخطوات العسكرية.

كان هذا ـ أكاد أقول ـ شيقا أن نرى، ونحن في أمان تام، الحرب نفسها التي دوختنا البارحة. لم تجب البناية. كانت مجرد بناية حمقاء وقبيحة من تلك البنايات التي طالما كرهتها. أخذت الدبابات تصيب تماما وكأنني أحركها بيدي. وقوفها الآلي جعلني أفكر بذلك.. تحركت الدبابة الأولى وتبعتها الأخريات وانسابت جميعا حتى بلغت المستديرة وانعطفت الى شارع منخفض، رأيناها تتوغل فيه وتقف أمام بناية ع. س. أقدم بناية في أقدم أحياء المدينة الجديدة. بني يوم لم يكن الشاطئ قريبا إلى الحد، وبدا مع ذلك مذعورا من أن ينكشف للبحر فأدارت مبانيه ظهورها للشاطئ وكأنها تقف جدارا دونه وأطلت بشرفاتها على الشارع. بدأت الدبابات ترمي على البناية. كنا نرى ذلك وكأنه في لوحة صينية. لم يخطر لي أن المدينة مكشوفة إلى هذا الحد، وبوسعنا أن نتابعها شارعا شارعا كأنها على شاشة كبيرة. بدت لي من هنا مبنية في ستديو، وبدا البحر عازلا ننظر منه الى المدينة كما ننظر من زجاج. طارت شرارة من بناية ع. س. واندفعت النار.

بدأت أشعر بضيق وكأنني أطرد عني ذكرى. لم أشعر في يوم أنني أودعت شيئا من حياتي في هذه المدينة التي عشت فيها كل عمري تقريبا، فهذه لم يوجد فيها محل يقترن بذكرى. عشت بدونها تقريبا، ليس لديّ فيها مكان مفضل أو خاص. ولا أميز فيها بوضوح بين بيتي وبيوت أصحابي، وربما لا أميز بين نفسي وبينهم وحياتي وحياتهم. لم أكن واعيا للحيطان المقشورة ولا الرائحة النتنة. اعتدت على ذلك حتى انه بالتأكيد يملأ رأسي. انها رائحتي وشبكية عيني. رأيت جيوشا من الذباب وتنفست كثيرا من روائح السمك المتعفن ولن أرى أو أتنفس بعد دون أن يكون أثر من ذلك راسبا في رئتي. ربما لذلك تبدو لي ذكرياتي هنا عائمة مبهمة كالأحلام. كأنها ولدت على الماء. باختصار، لا حاجة بي الى مدينة ويمكنني أن أتذكر ـ هل من حاجة للتذكر ـ بدونها.

مع ذلك شعرت وأنا أرى الدبابة تقصف بحنق. حنق استعصى فورا في رأسي. لم أعرف له سببا، لكنه لم يأت بالتأكيد من الشمس والتعب. سرى في الجميع على الأغلب شعور مماثل. انتشر بسرعة أن بيار ض. لا يزال في المدينة يرمي على الإسرائيليين. بعضهم قال ان بلال الفلسطيني هو الباقي. قالوا أيضا أن جماعة من الجبهة الحمراء رفضت الخروج. كان لدينا الجراة لنفكر بذلك ونتكلم هكذا. بيار ض. وحده، يرمي وحده من نافذة إلى نافذة من مبنى الى مبنى، كأن المدينة قطعة واحدة، النار تدفقت من النافذة وشبحه خلفها وخلالها.

(*) نشرت النصوص حسب الترتيب الابجدي باستثناء نص الزميل عباس بيضون.